سعد والديك ...

قصة عراقية

بقلم سميرة عزام

كانت مفاجأة له ان يعود ظهرا من المدرسة فيجد سوادا متكوما قريبا من باب غرفة الجلوس يتحرك حين يدخل ثم تبرز منه ذراعان سمراوان تقبضان على يده الصغيرة ويسمع صوتا مألوفا يقول :

– عيني سعودي .. ما تسلم على جليلة ؟

هنا فقط تبين أن في الكتلة السوداء وجها لم ينكره رغم هذه الاصباغ المضحكة التي فرش بها .

اجل كانت جليلة . ولقد فرح حين رآها فقد ظن بانها – وقد ركبت القطار – لن تعود .

ولكن امه قد قطعت عليه سبيل التكهن حين قالت : « جليلة جت ويه رجلها للزيارة » .

وقد اضحكه ان يكون لجليلة « رجل » فابتسم ابتسامة خجولة حاول ان يمنعها وهو يحس بها تريد ان تفرش نفسها على وجهه ، فقبل شهرين فقط كانت جليلة هي جليلة ، سوداء بلا تعقيد ، اظافرها صفراء ، وشعرها اكرت ، رفيقته ما دام في البيت تلاعبه – التوكة – وترسم له المربعات على ارضية الكراج الكبير بالطباشير البيضاء وتنتقي له حجرا تظل تحكه بالارض حتى تصقل اطرافه فيصبح سهل الانزلاق من مربع لاخر .

هذه هي جليلة قبل ان يأتي ابوها من مكان بعيد ، فيتربع قرب باب المطبخ ، ويمسح صحنا كبيرا من الطعام ، ثم يكرع نصف تنكة الماء قبل ان يسر في اذن ابنته ان تجمع اغراضها .. فتغالب هذه دمعتين لا يعترف ابوها بهما ، ولكنها تقوم تلمها ثم تأتي فتمسح على راسه قائلة :

– « عيني سعودي ابوي يريدني امشي وياه لهلي »

وهكذا انصرفت عنه جليلة بعد ان قبلت يد امه ، وقبلت خديه ، يتقدمها ابوها وهي وراءه تتأبط « البقجة » وقد راحت تتلفت بين الفترة والاخرى حتى اختفت في نهاية الشارع .

وفي المساء حدثته امه كيف ان جليلة ستتزوج ابن عمها الذي لا تعرف الام اسمه وانه يتعين عليه بعد الان ان يتعلم كيف يأكل وكيف يلعب التوكة بلا رفيق .

وكان قاسيا عليه ان تمضي جليلة فقد كانت رفيقة طيبة تحتمل منه كل شيء حتى اللكمات ، ولقد احس انه يحبها الساعة مثلما لم يحبها في اي وقت مضى ، وقد ود لو انه تذكر ان يعطيها هدية قبل ان تمشي ، « كفية » يشتريها لها من مخزن التجهيزات او لفة قمر الدين ، تأخذها لاهلها ، فقد كانت تحب قمر الدين وتغريه كلما اخذ من امه نقودا ان يشتري بها قطعة منه ، ما تلبث ان تأخذها وتمصها في فمها الكبير ولكنها سافرت ولن تعود .

والان هذي هي جليلة تتكوم في عباءة وتقول بصوتها الرفيع المطوط لامه :

– عمه .. سعودي ما عرفني جيف لابسه عباية !

ولكنه عرفها – فهو لا يخطئها قط .

ولم ينتبه سعودي حتى هذه اللحظة ان جليلة لم تكن وحدها ، فالى جانبها تكوم ديك مربوط الرجل بحبل رفيع ، امسكت جليلة بطرفه وشدته على ابهامها ، وقد اغلق الديك عينيه فبدا كالنائم ولما قامت حين جاء ابراهيم يخبرها بان زوجها قد جاء يطلبها ، ويبتسم ابتسامة خبيثة ، وهو يقول ذلك ، قامت هذه ، وقبلت يد امه في استحياء ، ثم نجحت ان تفوز بخده وهي تقول :

– عمه هذا ديج زغيرون جبته وياي لسعودي.

واسلمته طرف الخيط ورفضت ان تأخذ الدينار الذي قدمته امه لها الا بعد الحاح ، وقامت لتنصرف فتبعها سعودي ليرى شكل الرجل الذي اخذ منه جليلة .

ولكن هذه غذت السير ، فقد خجلت ان تتباطأ فيعرف « الجوارين » انها ذات رجل .

ولما عاد الى الغرفة وجد الديك الذي تركه يقفز شاحبا وراءه الحبل المشدود الى رجله ، الا ان المطاردة لم تطل اذ سرعان ما نادت امه ابراهيم فامسكه بعد مداورة قصيرة ورفعه في يده وتأمله وقال

– عمه اذبحه ؟

هنا فقط انتبه سعودي الى انه مسؤول عن الديك فجليلة قد حددت ان الهدية له ، وانها مضت بعد ان تركت له شيئا منها . وان هذا الديك الاسود ذا الذيل الطويل ، والعرف الاحمر الواقف ، شيء لا شأن لابراهيم به ، فتقدم واخذه منه وحمله ومسح على ريشه الناعم ، وتأمل عينيه العسليتين الصافيتين ، وتحدى ابراهيم الواقف بانتظار اشارة من امه وقال :

– هذا الديج مالي .. « صوغة » من جليلة موتمام يوم ؟

ولكن ابراهيم الوقح لم ينصرف قبل ان يقول

– عابت هيجي صوغة !

انه لم يحب جليلة في يوم من الايام ولن يحب الديك الذي احضرته

وتصور سعد ان ديك جليلة بحاجة الى حمايته ومحبته فهو يبدو خائفا مستغربا وكانما فهم ماذا تخبيء له عبارة ابراهيم « عمه اذبحه »

لا .. لن يذبحه ابراهيم، ولا احد في هذا البيت، وحمل الديك رفيقا ورجا امه ان تعطيه حبات من الارز ينثرها له،

ثم افلته ، واكتفى بامساك طرف الخيط ، وبالفرجة عليه وهو يتقدم بحذر نحو الحبات البيض المنثورة فيلتقط واحدة فثانية ، فثالثة ، ثم يجهز عليها جميعا بسرعة .

لقد كان جائعا ، ولا بد انه عطشان ايضا ، وانه سيشكره كثيرا لو تركه يشرب من المستنقع الصغير الذي يتجمع ماؤه من حنفية في الحديقة ، لا تمسك الماء جيدا ، فهي ابدا رخوة .

ولما شرب الديك واحس بالارتواء ، ربطه سعودي الى جذع شجرة النارنج في الحديقة وتركه يقفز بالقدر الذي يسمح به الحبل القصير ثم عاد يقول :

ـ ماما خطيه نذبح الديج خل دانربيه عدنا .

ولكن امه لم تقل شيئا ، وتدخل ابراهيم فقال وهو يرتب الصحاف على المائدة

ـ قابل تريد الحديقة تصير سيان من وصاخته ؟

ـ هذا مو شغلك ، هذا خوش ديج ما يوسخ

ولكن الديك خيب ظنه ، فهو لم يتورع ان يملأ ما تحت الشجرة قذارة ، وان ينبش الارض باظافره ، ولما عاتبه سعودي لم يرد عليه باكثر من ـ وقوقة ـ لا تعني وعدا بالكف عن شيء .

ومع ذلك لم يبخل عليه بقبضة من حبوب الارز الناشف ولم يتردد ان يحرم نفسه من اكل « الدوندرمة » ليشتري بالفلوس العشرة قبضة من « اللبلبي » حملها للديك ظهرا فاكلها في لحظات ، لقد كان ديكا شرها ترك المجال لابراهيم لان يقول :

ـ ديج مال فكورة ما شايف ـ انعل ابوه لابو اللي جابوه . .

وود لو يضرب ابراهيم على فمه ، فقد كانت شهوة الذبح في عينيه ، ولكن ابراهيم وعداءه للديك لم يكن المشكلة الوحيدة فان شجرة النارنج كانت تجاور شباك الغرفة التي ينام فيها ابواه ، وقد نهض ابوه صباحا ليتساءل عن مصدر هذا الصياح الذي قطع عليه نومة الصبح ، فلما عرف بامر الديك لم يبد عليه انه قد اساغ وجوده .

ولقد قلق سعودي فان اباه عصبي ، ولو سكت اليوم فلن يسكت غدا ، ولقد حاول وهو يلاعب الديك عصرا ان يفهمه بكل الطرق بان اهل المدينة يستيقظون على دقات الساعة فليس بهم حاجة الى صياحه ، وان الامر هنا غير ما هو عليه في القرية ، ولكنه كان ديكا عنيدا لم يبال ان يتفنن في اطلاق صيحاته بمختلف النغمات في صباح اليوم التالي ، لذا جمد في فراشه حين صاح الديك واصاخ السمع جيدا فبلغه صوت ابيه يقول لامه في حدة

ـ تاليها ويا هذا الديج ؟

اجل لا بد من التفكير في طريقة ، هل يربط منقاره بخيط فلا يصيح ؟ كيف يأكل اذن ؟

هل يحمله الى السطح ويربطه بالخشبة التي ترفع حبال الغسيل ؟

ستقتله حرارة الشمس ، وقد يغريه العذاب ان ينط الى سطوح الجيران . ولكن فكرة نقله الى السطح معقولة لو توفر له القفص .

ولما لم يهتد بسهولة الى طريقة الحصول على القفص رأى ان يجعل من اي شيء قفصا يعيش فيه ديك جليلة

ولكن الصدفة وفرت عليه عناء التفكير الطويل ، فقد مر بالسوق ورأى الطماطة عند بائع « المخضر » مكومة في قفص من سعف النخيل يصلح جدا للديك لو قلبه وفرش على ظهره شيئا يحمي الديك من حرارة الشمس وتقدم من البائع

ـ عمي بيش تريد القفص ؟

ـ تقصد الطماطة ؟ بثمانين فلس ابني

ـ ما اريد الطماطة ، أريد القفص بيش تبيعه ؟

ـ ابني روح ، ما عنك شغل ؟

ـ عمي اريده ، انطيك شكد ما تريد

ـ روح جيب مية وخمسين فلس

مائة وخمسون .. هذا مصروفه في اسبوعين .. وقد يمكن له ان يستغني عن انفاق ـ عشرته ـ اليومية ولكن من الذي يضمن سلامة الديك من شر ابراهيم او عصبية ابيه حين يصيح هذا في الصباح ؟

ورغم هذا كله فليس هناك غير شراء القفص

وكان يجتهد ما وسعه الامر ليوهم امه بان الديك لا يترك اقذارا حواليه ، فهو ما يكاد يصل من المدرسة حتى يتسلل الى مكان الديك ويكنس القذارة التي يفرشها تحت الشجرة، ولكن كيف له ان يسكت صياحه ؟

كان يستيقظ قبله ، ويفتح اذنيه ، ويضع يده على قلبه، ويرجو بكل حرارة ان لا يحس الديك بطلوع الصباح ، وان تأخذه نومة الصبح التي تأخذ اباه

يوم ، يومان ، سبعة ، خمسة عشر !

وجمع المائة والخمسين فلسا ، وحملها لبائع المخضر ، وعاد بالقفص يسحبه على اسفلت الشارع الذي سيخته شمس الظهيرة ، ولم ينج من تحرشات الصبية حتى وصل البيت .

ويخدمه الحظ ويجد الباب مفتوحا فيتسلل الى السطح ويترك القفص هناك ، ثم يهبط السلم بسرعة ، ويمضي الى الحديقة فلا يجد غير حبل مشدود الى الشجرة

ولم يكن الديك هناك

انما كانت ريشات لامعة يبدو انها انتزعت اثر مطاردة . اما الديك فقد كان طبقا على المائدة تحيط به حبات البطاطس المقلي .

ولم يحتمل ان يرى اباه يغرز فيه سكينا فهرب الى غرفته وقد غسلت الدموع وجهه ، ودفن رأسه تحت اللحاف . دون ان يبالي بتوسلات امه التي رجته ان يقوم ، فيأكل هذه الشرائح اللذيذة التي تحملها له .

انه يكرهها .. يكرهها .. يكره اباه .. يكره ابراهيم .. يكرههم جميعا فهم لا يعرفون ان الديك ، صديقه الديك ، ذا الريشات السود اللامعات ، يمكن ان يكون لانسان غير لحم يؤكل .

بغداد — سميرة عزام